محمد بن ربيع الغامدي

خان الخياطين

الطبعة الثالثة 2025

محمد بن ربيع الغامدي

خان الخيّاطين

قصص قصيرة

قصص من وحي الغابرين (الجزء الثاني)

الطبعة الثالثة

٢٠٢٥

ⓒ محمد بن ربيع الغامدي ، ١٤٤٦هـ

الغامدي ، محمد بن ربيع
خان الخياطين. / محمد بن ربيع الغامدي - ط٢. .- الباحة ، ١٤٤٦هـ
٧٦ ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٦/١١٥٨٨
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٥-٤٦٤٥-٩

تصميم الأغلفة: المهندس عدنان محمد ربيع الغامدي

تنسيق الصفحات: محمد بن ربيع الغامدي

الطبعة الأولى : ٢٠١٧

الطبعة الثانية: ٢٠٢٥

حقوق الطبع للمؤلف

الإهداء

إلى أخواتي الفاضلات

كرائمي الأربع:

أم عبد الله بن أحمد

أم محمد بن عبد الله

أم محمد بن حسين

أم حسين بن محمد

"جاءني قدري بعد كنّ ووضعتني أريحيتكنّ في المقدمة"

لقلوبكن هذا الإهداء

ومعه كل الود

والتقدير

والاحترام

خان الخياطين

لا أسمع في خان الخياطين إلا ضجيج مكائن الخياطة، وعندما طلبته أن يتوقف بضع دقائق ليسمعني رفض طلبي. كنت بالكاد أميز كلماته وهو يقول لي: قل ما تريد وسوف أسمعك. قلت في نفسي وضجيج مكينة الخياطة يخلط العبارات بالرمل ويصبها في أذني: هو سوف يسمعني حتما لأنه معتاد على الأخذ والرد تحت هذا الضجيج، لكني أنا الذي سوف لن أسمعه. ومع ذلك قلت له: أنا موزع البريد يا سيدي، ومعي رسالة عنوانها خان الخياطين. قال لي وساقاه تتحركان علوا وهبوطا فوق رجل المكينة، وكأنه جوكي مفتون بحصانه في مضمار سباق: أعرف أنك موزع بريد، هذه الحقيبة التي معك هي حقيبة موزع بريد، وأعرف أيضا أنك موزع جديد تأتي الينا للمرة الأولى.

أدهشني استنتاجه ففرحت به. سعدت كثيرا أن كلماته قد وصلت الى أذنيّ كاملة غير منقوصة. ورغم ضجيج مكينته الذي يشتت كل شيء فقد سألته وأنا ألوح بمظروف في يدي: مكتوب في غلاف هذه الرسالة خان الخياطين بينما على بوابة الخان مكتوب خان الملطاني فما السر يا صديقي؟ ويبدو أن سحرا ما قد اندسّ في عبارتي هذه جعله يكف عن تحريك قدميه متوقفا عن الخياطة. صمتت مكينته وتكلم هو ليقول: يبدو أنك

موزع بريد مولع بالتاريخ. أطلق لقدميك العنان لتأخذك إلى حيث باب الريع، هناك تجد مكتبة بن كمال، بن كمال وحده يفتيك في تاريخ الطائف.

كان رده محبطا، لكن الهدوء الذي ساد المكان قد راق لي كثيرا. صحيح أن ذلك الضجيج الذي اختفى قد اختفت معه أذناي أيضا، إلا أنه قد أحيا فوق لساني بقية من نشوة كلام فتجاهلت ذلك السيف البتار الذي تراءى لي على صخرة وجهه، واقتربت منه حتى أسندت مرفقي على ميز المكينة وسألته مستدركا: افهمني يا عم، صاحب هذه الرسالة قد جعل عنوانه على شيخ الخياطين في خان الخياطين فهل هذا هو خان الخياطين؟ وإن كان هو فهل تعرف شيخ الخياطين هنا من يكون؟

تناول الرسالة من يدي. قلبها بين يديه ثم دفع بها نحوي ثانية، ومثلما توقف فجأة منذ دقائق، فقد استأنف الان فجأة، وبصورة كأنها احتجاج صاخب.

عادت عجلات المكينة إلى الدوران فعاد معها الضجيج. جاءني جوابه الممزوجة قسوته بضجيج مكينته: شيخ الخياطين

هرِم ومات وقد حللت مكانه، لكني لا أعرف صـــاحب هذا المظروف ولا أرغب في معرفته.

قالها دون أن يتوقف، دون أن يرفع عيناه عن كندرة المكينة، وتركني أغرق في ضجيج خان الخياطين.

زمان الواقعة ١٩٦١ ومكانها خان الملطاني (خان الخياطين) في مدينة الطائف

البني آدم

مكّنتُ يمناي من كمّ أبي، بينما يسراي داخل السيّالة اليسرى تحكم قبضتها على هللة في قاع السيّالة. غير بعيد منا كان هناك متفرج له ضب يوشك أن يقضم شفته السفلى. ألقى هللة غاصت في ماء العَقْم، وجميعنا أحداق تترقب مشهدا مهيبا في مهرجان عفوي. قفز ثلاثة من الصبية ثم غاصوا، غابوا عن أعيننا حتى استوت الفقاعات على الماء، فلما سكن الماء، عادوا صعودا لكن الهللة في يد واحد منهم فقط. ألقى الرجل هللة أخرى فتبعها من الصبية أثنان بينما غادر الثالث الماء.

غادرت عيناي الصغيرتان ذلك المشهد المهيب، وبقيتا تتابعان الصبي المنسحب الذي ترك الماء. كان قريبا من سني، ولذلك أشفقت عليه، فأقسمت أن أعطيه الهللة التي في جيبي. غافلت أبي الذي كان مشدودا إلى صفحة الماء وتبعت الصبي. توقفت أمامه عندما توقف، وناولته الهللة. انقض على يدي مثل نسر جارح وخطف الهللة من بين أصابعي. أخذ الهللة ثم أوقعني أرضا وهرب.

زمان الواقعة عام ١٩٥٦ ومكانها عَقْم حوايا في مدينة الطائف

سباق (ثلاثية قصصية)

(الأولى)

منذ وضع قدمه على حافّة الرصيف وأنا أعرف هدفه على وجه الدقة، ومنذ وضعت قدمي على حافة الرصيف وهو يعرف هدفي على وجه الدقة أيضا. كان يحث السير ليصل متقدما عني، وكنت في الطرف المقابل أحث السير أيضا لأصل متقدما عنه. يراقبني خلسة وأراه يراقب، أراقبه خلسة ويراني أراقب. وصلت باب المخبز متقدما عنه، تقدمت عليه لمهارة في المخاتلة ورثتها عن أبي، لكن صاحب المخبز اعتذر منا فقد نفذ الخبز.

(الثانية)

يجتاحني الغيظ إذا رأيت أخي يلتقط بكرة من تلك البكرات العملاقة. أتسلل كل صباح إلى فناء داره وأعدّ البكرات لأعرف كم جمع. أرابط بقية يومي أتتبع العمّال، كلما أفرغوا بكرة دحرجتها نحو فناء داري. علامات الغيظ يكاد يخفيها لكنها لا تختفي، أراها كلما دحرجت أمامي بكرة من تلك البكرات. يحصـــي ما أجمعه منها أولا بأول. ما إن انتهت الشـــركة من التمديدات حتى طافت بنا، تجمع بكراتها الفارغة ومعهم الشرطة.

(الثالثة)

كانت لعبته الوحيدة الأثيرة. يلعبها ظهيرة كل يوم، يقتطع من وجبة الغداء قطعة لحم ثم يربطها في حبل من النايلون القوي، يقذفها من نافذة غرفته بينما يمسك في يده الطرف الآخر من الحبل. ما إن تستقر قطعة اللحم عند أقدام النافذة، حتى تأتي القطط من كل حدب وصوب. يموج الفناء قططا، تحدودب الظهور ويعلو الهرير وتتوتر الأقواس. وعندما توشك القطة السبّاقة على الظفر باللحمة، يسحب الحبل بسرعة خاطفة ويضحك.

شارع البرسيم

ترجّلتُ واستلمتُ شارع البرسيم من أعلاه. سرتُ داخل علبةٍ من ظلام وبرد، أربعة عقود باعدت بيني وبين شميم هواه، أربعون إلى سنوات التيه أقرب لذلك وقفت، وقفت دقائق أُرتِّبُ فيها بوصلة الشارع.

شرعتُ أُمرِرُ عيني كأنّها قارئ باركود. الشوارع اكتست زفتا ورُصِفَتْ، والبيوت أصبحت مبنية بعد الطين بالإسمنت، الشارع باقٍ والبيوت لم تغادر مواقعها، وأعمدة الإضاءة منتصبة فمن أين تسلل ذلك الظلام؟

على اللوحة الزرقاء قرأت: شارع عثمان بن عفان، وقبل أن اعترض رأيت بين هلالين: البرسيم سابقا. الوجوه التي ألفتها غابت، حل محلها البرد وقليل من بصاق وذباب.

مزّق صوت عم فرج رداء الظلمة والبرد: "يا بليلة بللوكي سبع جواري خدموكي". اتجهت نحوه، هو بوصلة بيتي ودكان أبي. أسرعت أكثر عندما غنّى ثانية: " كلوا بللوا يا عيال".

وصلتُ أدنى الشارع دون أن ألقاه. عاد صوته ثانية فعدت، بلغت أعلى الشارع دون جدوى، عاد للغناء ثانية وعدت

للبحث، البرد يشتد والظلام يلتف ولا أحد. أغلقت مسامعي وبدأتُ البحث بأذنين مسدودتين.

زمان الواقعة ٢٠٠٠ ومكانها شارع عثمان بن عفان(البرسيم سابقا) في مدينة الطائف

ترهُّل

عرفه الناس بنّاء ينثر الجمال عمائر شـــاهقة، عمائر تحمل بصـــمته المميزة في البناء. وعندما وقف ذات يوم أمام جموع المصـــلين ليعلن ترك التدخين تعالت تكبيرات الناس، وأفردوا له مســـاحات واســـعة من الحكي. آخر مرة رأيته فيها كان قد أجهز على شـــاربه تماما، وأطلق لحية كأنما نُسِـــجت من مسك أسود، وترهّل. ترهل حتى أوشك أن يكون لحما بلا عظم، ثم غاب.

المغزول

أمد ساقي وأرفع قدمي وأسلت ظهري شيئا فشيئا على الأريكة التي تحملني. أوجّه إبهام قدمي اليمنى لتتوسط بين عيني ووجه قاسم. وفي لحظة – وما أشد دهشتي – غطّى إبهام قدمي على ذلك الوجه الكالح. ضحكت فرحا بما تحقق، فإصبع قدمي اليمنى يحجب وجه قاسم تماما وهو لا يدري!.

قاسم هو كبير الممرضين هنا، بل هو – رغم وجهه الجرانيتي – أفضلهم على الإطلاق. ولأضعكم في الصورة، فهو يعرف أنني لست بمجنون. يعرف أنني شاعر، وهو مولع بقصائدي، وقد وعد أن يساعدني في مغادرة هذه المصحة، لكنه ينتظر مني أن أبلع ريقي، فقط أبلع ريقي، وكلما همزت كتفه يقول أبلع ريقك.

هو يحبني كثيرا، ولذلك جاء إلى وأنا أرفع قدمي وأحجبه بإبهامي، لكنه عندما اقترب مني كثيرا بات أكبر حجما من إبهامي، ولما اقترب أكثر، وكزني بقوة في ساقي وقال ضع قدمك على الأرض، ثم عاد من حيث أتى، وكأنه لم يأت إلا ليأمرني بوضع قدمي على الأرض.

المرضى هنا كلهم يحبونه فهو الذي يأخذهم إلى حديقة المستشفى. ساعة في أول النهار وساعة في آخره وأظنه هو

الذي زرع أشـــجار الحديقة كلها، وهو الذي صـــنع هذه الأرائك، وهو الذي بنى تلك الممرات، وهو الذي رصفها أيضا.

قاســـم. هذا الممرض المنتفخ، يعتقد أنني مجنون، مثله مثل البقية. منذ جاء بي أبي من قريتنا وســلمني لهم وهم يقولون أنت مغزول. هكذا قال لهم أبي، قال لهم هذا مغزول فقالوا لي أنت مغزول. وعندما خرج أبي خدعوه وقالوا أنت مجنون. قالها هذا القزم قاسم الذي لا يزيد حجمه عن حجم ابهام قدمي.

ها هو يبتعد عني في الطرف المقابل من الحديقة. ارفع قدمي الان، أســـلت ظهري قليلا على الأريكة، أوجه ابهام قدمي اليمنى تجاهه، وها هو ابهام قدمي اليمنى يحجب وجهه. أجرب قدمي اليســرى، ها هو ابهامها يحجبه أيضـــا. قزم! يحجبه ابهام قدمي اليمنى، ويحجبه ابهام قدمي اليسرى ايضا.

رمضان كريم

مرّ على (مِذْوِدِها) فالتفتت تسأل عن هذا السفر إلى أين؟. شد عليها أوعية فاغرة، ركب وتدلت رجلاه من على جانبيها ومضى صوب السوق. هناك (يرى) صخب الناس، وجدل الناس، لكن لن يسمع إلا وقع حوافرها. ولن يرى سوى حمارته ترفع رأساً بيضاء، تبحث عن موقعها بين حمير الناس.

صال وجال وراح وجاء تتنازعه قوتان. مسيس الحاجة، وشظف العيش. بين مبسط ودكان و(مجزارة) تستحم في صباح الأحد بأكوام اللحم، وعدسات المارة، وبعض الذباب.

وضع (سادي اللحم) في (قلص) من جلد مسلوم، تطلع نحو الطرف الآخر في ذلك السوق. سار إليها وتدلت رجلاه على جوانبها، ومضى صوب البيت. ودع صخب السوق، وجدل الناس، ورائحة الأسعار. لكن بقيت في أذنيه ترانيم خطى وحوافر، ما ملت من شظف اليوم وسر الآتي.

شمس يوليو قطعة من سعير. تتعامد بإصرار على مدار السرطان، ومدار السرطان يصر على البقاء بلادة في ذات المكان. الحقل تحوّل إلى تنور في ذروة الحرارة. نظرت إليه الشمس يدب على حمارته أسفل منها: أما آن لهذا الفارس الحنطي أن يترجل؟

نظر إلى قرص الشمس اليانع في عز الشظف السروي وقال له: يا هذا اللهب الناري أفق، فالناس صيام.

حرك قدماً تعرف للتربة رائحة أخرى، سار إلى حيث الظل. مد الظهر وراح يعب من الراحة قسطاً يحتاج إليه.

لا يوجد في كل الأوقات، ما هو أكثر بطئاً من تلك الساعة. في تلك الساعة من ساعات اليوم ترى كل الأشياء بطيئة. الظل بطيء، والشمس بطيئة، والليل بطيء، والريح بطيئة، وحفيف الأشجار بطيء، والخطوات بطيئة. هذا طبع الصيف وطبع نهار الصيف، والناس صيام.

تحرك نحو المسجد، في درب تشتاق إليه خطاه، ويهواه ذاك الدرب. قارب باب المسجد، دخل الرحبة. في الرحبة شاهد شخصاً، اثنين، ثلاثة من أهل القرية، وغريباً يجلس في وسط القوم. كانوا قد سألوه قبيل المغرب أين القصد؟ وعرفوا أن الرجل يماني جاء برفقة صاحبه للحج على الأقدام. وفي تلك البقعة من أرض الله تعطل صاحبه. وجدا تلك الغرفة ملحقة بالمسجد ووجوهاً تطفح بالبشرى فأناخوا الأقدام هناك.

رفع المؤذن صوته، وامتدت الأيدي إلى (محصل التمر) وعلى اســـم الله أفطر الصـــائمون. ومثلما اجتمعوا حول المائدة الحميمة فقد انتظم عقدهم ثانية خلف الإمام، وقرأ الشـــيخ آيات من سورة الحشر ناصفها بين ركعتين: " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون".

حث الخطو إلى بيت يكتظ برائحة اللحمة. قرر أن يقهر شــح النفس، اقتحم البيت وقال لزوجته أشــياء كثيرة، الحج على الأقدام ورجلان غريبان، وقد حان الوقت لذبح الشح وقهر النفس فأحد الرجلين مريض في تلك الغرفة بجوار المسجد. رأت الزوجة أن تتغابى. أعاد الزوج فضـــحكت. قال، قالت، قال وقالت، قال لها فقالت: هاك اللحمة!.

دخل الغرفة ضـيوف المسـجد. وضـع (الجحل) بما فيه وقال كلوا. نظروا في بطن (الجحل)، رأوا فيه طعاماً يكفي أكثر من اثنين، أخذوا حاجتهم وأعادوا الباقي. أخذته الزوجة، نظرت في بطن الجحل وضحكت: رمضان كريم.

زمان الواقعة ١٩٤٨ ومكانها قرية من قرى منطقة الباحة

هارمونيكا

انحدرت بنا السيارة نحو القاع السحيق، في طريق وعر، يتخلل شـــجيرات العرعر المتناثرة على الســـفوح. ذلك المنحدر استقر بنا في بطن الوادي، وعلينا من ثم أن نقطع مسافة أخرى في طريق ترابي يسير برهة قبل أن يتوقف بنا أخيرا، لتفضي بنا أقدامنا بعدئذ إلى أجمة متشابكة الأشجار، يتخللها طريق ضيق أشبه ما يكون بطريق يسلكه النمل نحو مساكنه.

عندما خرجنا من بين الأشجار، وجدنا أنفسنا في بوحه جرداء، وعلى مســـافة أمام أبصـــارنا، رأينا رجلا ينثر علفا وحشائش، لبضع غنيمات يتراقصن حوله.

في اللحظة ذاتها، التي ابصرناه فيها، كان هو أيضا قد أبصـــرنا، فصـــرخ فينا دون أن يتوقف عن نثر العلف أو حتى ينظر نحونا: ماذا تريدون؟. توقفنا وقلت لمرافقي: هذا هو. وواصـــلنا الســـير، صـــرخ فينا وقد بدا وكأنه قاطع طريق قزم: توقفوا، هنا نســـاء وأطفال. رد عليه مرافقي: نحن نريدك أنت، لا شأن لنا بغيرك وإذا اقتربنا منك أخبرناك بحاجتنا.

لما صـــمت واســـتأنف نثر العلف لغنيماته، أدركنا أنه يوافق على قدومنا إليه، فاستلمنا تلا صـغيرا يحملنا اليه. عندما سـلمنا عليه رد الســلام بغير اهتمام، وكأنه غير مكترث بنا، بل

تجاهل وجودنا تماما وانصرف ينثر العلف لقطيع الماعز المتحلق حوله، مما دفع بمرافقي للاقتراب منه أكثر، وبلهجة غلبت عليها نبرة العتاب قال له: انا مريض، ولولا مرضـــي ما قطعت هذا المشوار الشاق لأصل إليك فاعطنا شيئا من اهتمامك.

ألقى بالعلف أرضـــا واســـتدار نحونا وكأنما كان يلقي خطابا. قال في تهكم واضـح: مريض؟ المريض دواؤه عند الله أو عند الطبيب، وانا لست ربا ولست طبيبا، وكما ترى هذه الماعز تحتاجني أكثر مما تحتاجني أنت. ســـكت برهة ثم تقدم نحونا خطوة واحدة وسأل: هل أنتما مباحث؟ أم من رجال الهيعة؟

اقترب منا قليلا ثم أضاف: قالوا لكم هناك مشعوذ، فأتيتم لتقبضـــوا علي؟ أذهبا الان من حيث أتيتما فأنا رجل فقير ولو كنت كذلك لكنت الان من كبار الأغنياء. حينها أسـقط في أيدينا وكدنا أن نعود أدراجنا لولا أنه اقترب منا وســـأل: ماذا تعملان؟ أروني بطاقتيكما. وعندما رأى بطاقتينا تهلل وجهه وأشـــار إلى مبنى حجري ليس ببعيد وقال: اذهبا هناك وانتظرا حتى آتيكما.

طال انتظارنا له في تلك الغرفة التي لم يكن فيها ســوى قطعة صـغيرة مهترئة من سجاد قديم ومتسخ. وعندما دخل علينا

انتحى الجهة المقابلة، ثم جلس على سرير متهالك مجرد من كل غطاء.

من على الســـرير كان يحدق في أقدامنا، ثم انتفض فجأة، وبدأ يضـرب صـدره بقبضـة يده إلى أن تبدلت ملامح وجهه ليتوقف عن الضرب ويطلق العنان لصوت تتخلق فيه الفجيعة أمامنا بين عواء كلب وعويل ثكلى.

توقف فجأة وأخذ نفســـا عميقا ونهض، ثم توجه نحو مرافقي لينتشل قبعته من تحت عمامته بخفة عجيبة. جمع شفتي القبعة حتى بدت مثل نصف رغيف، بدأ يمررها على فمه وكأنها آلة هارمونيكا.

كان منتصـــبا ونحن جلوس ننظر إليه واقفا يمرر القبعة أمام فمه ويتمتم، أخذ جسمه يترقرق من رأسه حتى أخمص قدميه مثلما يترقرق الجيلي في آنيته. نظرت إلى مرافقي وقد شـــحب وجهه، وانسـدلت وجنتاه، وبدأ جسـده يترقرق وكأنه كتلة من لحم بلا عظم، ثم شرع يعوي عواء كلب في ليلة موحشة.

زمان الواقعة ١٩٩٢ ومكانها بعض أودية منطقة الباحة

هجرة نغم

جاءت نحوي بِخطابِ التعيين وعلى وجهِها نسيجٌ من همٍّ وقلق. رأيتُ الخطابَ فقلتُ لها أبشري، وظيفتُكِ في هجرةِ نغم، ولو لم يكن إلا اسمُها لكفاكِ. قالت وقد تضاءلَ بعضُ همِّها: لكنه مكان بعيد يا أبي، قلت لها فليكن بعيدا أليست تجْرِبة؟ ما قيمةُ الحياةِ من غير تَجارِب؟ الحياةُ من غير تجارب مثلُ كتابٍ بصفحةٍ واحدة. لا عليك، تجْرِبةٌ وسنخوضُها معك.

كما وعدتُها. خرجنا عندَ الفجر، هي وأخوها وأنا بحثا عن هجرةِ نغم. أسلمتنا تعاريجُ قريتِنا إلى الشارعِ العام. عبرنا المأهولَ دونَ أن نشعر، وعندما توغلنا في الحرّةِ قلت: أعرفُ هجرةَ القُشُوبِ جيدا أما هجرةَ نغم فلا، لكنهما قريبتانِ من بعْضِهما على كل حال.

لم نعُدْ نُشاهدُ في طريقِنا أيَّ أثرٍ للناس. انقطعتِ المباني، لم يبقَ لنا الا الإسفِلت، وسلاسل جبالٍ تمشي معنا ذات اليمين وذات الشِّمال، كأنها قوافلُ أفيالٍ عملاقةٍ تحرسُ موكبَنا. الجوُّ خارجَ السيارةِ يشوي الوجوه. الأرضُ ساخنةُ والهواءُ ساخن، ولولا السيارةُ لكنا نتحركُ داخلَ سديمٍ من غازٍ مستعر. مررنا بلوحةٍ زرقاءَ مكتوبٌ عليها هجرةُ ملاح، فأدركت أن الطريقَ باقٍ في أوّلِه.

قلتُ لرفاقِ الرحلةِ عن هذه الأرضِ المحروقةِ، أنها كانت عامرةً بالغناء، وذاتَ زمانٍ كانت هذه الجبالُ تسمعُ غناءَ الرعاةِ إذا أصبحَ النهار، وتأنسُ لحداءِ القوافلِ إذا جنّ الليل، لم يعد هناك رعاة وحداء القوافل ضاع في غيهب من ضجيج.

استبدَّ بي الحنينُ لأزمنةِ الغناء، ورأيتُ الفراغَ من حولي يتمددُ بشكلٍ موحش. فتشتُ عن عقيرتِي في حنايا الفؤاد، ثم رفعتُها هجينية "يا لله يا قابل التوبة، يا لله من النار تنجيني" وعندما ردّدَ رفاقُ الرحلةِ: يا لله يا قابل التوبة، يا لله من النار تنجيني ضربتُ مِقْودَ السيارة بقبضتي وقلتُ منتصرا: لابد أن هجرةَ نغم قد شيّدت على أغنيةٍ ما.

عندما رأيتُ اللوحةَ الزرقاء التي تُشيرُ إلى مَفْرقِ هجرةِ القشوب، عرفت أننا لسنا ببعيدين عن هجرةِ نغم. لَمَحَ ابني بدويا يُفرِغُ حُمُولةَ سيارتِه من الحطب، قلت نسألُه الآن قبل أن ندخلَ في قفرٍ لا داعي فيه ولا مجيب فتوقفت وسلمت.

ردّ السلامَ لكنه لم يتوقفْ عن عمله. سألتُه عن الطريقِ إلى هجرةِ نغم فردّ مستغربا: هجرة من؟ قلتُ: هجرةُ نغم. وضع كومَ الحطبِ من على ذراعِه والتفتَ، وتساءل: نغم؟ قلتُ: نغم. ضحكَ وكأنه يسخرُ مني. انتفضتُ قائلا: هي مكتوبةٌ هكذا في

أوراقِ الوزارة. تراختْ حدتُه قليلا ثم اقتربَ منا حتى اسـندَ مِرفَقَيه على النافذة، وسأل ممعنا في الاستخفاف: الوزارة؟

بعصـــــبيةٍ أخرجتُ خطـاب الوزارة وفتحتُه. بحثت عن الكلمة وصـعقت. يا إلهي! أبعدتُه عن وجهي ثم أدنيتُه، ثم أبعدتُه وأدنيته. همستُ وأنا أتصببُ خجلا: يا إلهي كيف قرأتُها نغم؟ ما هذه الغلطة؟ وفي غمرةِ خجلي رفعتُ رأسـيَ وسـألتُ الرجلَ وكأن شيئا لم يكن: أين هي الطريق إلى هجرة نغب؟

زمان الواقعة ٢٠٠١ ومكانها فيما بين فراع بني ثعلبة وفيوض الهيلاء

ربيع الحجون

استند عِيْضَة على الحائط الصخري ثم أشعل غليونَه فاكتظ ريع الحجون برائحة التنباك العَثَرِي. وقف غُرْمُ الله بقامته المديدة يستند على عتلة كأنها الرمح السمهري ثم زمجر: تَمَصَّصْ غليونك يا عِيْضَة وذق ما أنت فيه من الذل والمهانة. سكت غُرْمُ الله برهة ثم قال وكأنه يخطب في السجناء: هذا عِيْضَة ما ترك أمرا فيه شر إلا وأدخل فيه يده. جعل من قريتنا الجنوبية مقبرة للخير. حتى عابر السبيل، عابر السبيل سقاه من كأس الأذية حتى أرتوى. هل نسيت ذلك الحاج الذي لم يهنأ لك أن تسلبه متاعه وتتركه في حال سبيله، بل دفعته من خلفه نحو بئر الأفاعي ليواجه في قعرها موتا لا يعرف من أين يأتيه.

توقف السجناء عن مواصلة أعمالهم الشاقة. سكنت المطارق والأزاميل والعتل، ليس إلا عيونهم تراوح النظر بين غُرْم الله وبين عِيْضَة. وإذ تمسك عِيْضَة بغليونه أكثر من أي وقت مضى؛ انبرى غُرْمُ الله مواصلا خصامه: تَمَصَّصْ يا عِيْضَة، تَمَصَّصْ غليونك. وحق الله لئن طاحت بقعا في رأسي لأقتلنك الآن ثم لا يسأل عنك أحد، أترى لو تناثر مخك الان بهذه العتلة هل سيسأل عنك أحد؟ سجين قتل سجينا، حتى سيدنا الشريف

نفســه لن يســأل عنك. قســما لولا هذه الأثقال في قدميَّ لأقتلنك الان ولن يسأل عنك أحد.

تحرك عِيْضَـــة أخيرا بعد أن أثخنته كلمات غُرْم الله، ثم قال وكأنه يســتدرك وَهَنَا عقائديا عند غُرْمُ الله: ولِمَ يســأل عني سيدنا الشريف؟ وَلِمَ يسأل عني الصدر الأعظم القابع الآن في الآستانة؟ أو حتى السلطان نفسه. لِمَ يسأل عني كل هؤلاء وربي موجود؟ قالها وكأنما قد صب ماء الأسيد فوق رأس غُرْم الله الذي انتفض صـــارخا: ربك؟ ربك؟ الآن تعرف ربك؟ لماذا لم تتذكر ربك وأنت تَتُلُّ الحاج تلقي به في تلك البئر المهجورة؟ الآن بعد أن قبض عليك عسكر سيدنا الشريف وقذفوا بك في ريع الحجون تذكرت ربك؟

رأى عِيْضَــة أنه قد حان الوقت للدفاع عن نفســه ولذلك قال في برود عميق: أنا ما دفعت أحدا. عابر سبيل توجست منه خيفة، وعندما اقتربت منه فر من أمامي. أخذ يجري وأنا من خلفه أحذِّره، لم يســمع، اســتمر يجري ويجري حتى تردى في البئر. ثم يا أخي غُرْم الله دعني اسألك: ان كان شر أعمالي قد جاء بي إلى هنا فما الذي جاء بك أنت؟ عملك الصالح؟ قدماي ترسفان في الأغلال؛ وقدماك أيضا، أنا وأنت ننحت هذا الصفا

الأزرق في ريع الحجون منذ ساعات الفجر الأول، أنا وأنت سويا وعلى قدم المساواة. فإن كانت سُخْرَة الشريف قد جاءت عقابا لي فما شأن الصالحين بها؟ ضحك السجناء دفعة واحدة، ولما زعق المِشِدّي فيهم عادت أصوات المطارق والأزاميل والعتل من جديد.

قهوة المداس

كنت وصـــديقي نقطع المنحدر بين بابور ســكّين وبين قهوة المداس. كان صـــديقي طوال تلك المســـافة لا يفتأ يردد مخاوفه من العم صـالح المداس، فهو صـاحب المقهى. السـفر ينطلق عادة من المقهى الذي يلعب دور المحطة أيضـــا، وهو أيضـــا يعرفنا معرفة جيدة، ويعرف آباءنا، وســـوف يرتاب في سفرتنا هذه، ولربما حال بيننا وبين السفر.

كنت أحاول إشاعة جو من التفاؤل. لذلك قلت لصديقي: عم صالح سيكون مختلفا معنا، لن يسألنا سفرتنا لماذا هي والى أين ستكون. نعم هو رجل يعرف كل العابرين، يحفظ كل الوجوه، ويقوم تطوعا بدور رجل الجوازات، أو حتى دور حرس الحدود. لكني ســـأجعل من معرفته بنا وبآبائنا غطاء نتفيأ ظلاله في الطريق إلى الطائف.

عندما انحدرنا إليها من الســـفوح الغربية لجبال الحبناء كانت رهوة البر بن ثعلبة رهوة تســتوي ممتدة من تحتنا. وها هي قهوة المداس البناء الوحيد الذي تراه عيوننا. بناء من الطين لكنه آخر عتبات الجحيم وأول بوابات الفردوس. وكنت وصـديقي نكاد نلمس من على البعد ســيارات الفُرْتْ الحمراء التي تصــطف في

رحبة المقهى، بل ونسمع وجيب الأفئدة التي كانت تهوي نحو ذات المكان عبر الجبال والآكام المجاورة.

وصلت وصديقي إلى قهوة المداس. وبينما حمرة السيارات ورائحة البنزين تصف المكان، وتسم الزمان بوسمها، كان العم صالح المداس في صدر القهوة كأنه نمرٌ جاء للتو من محارز النمور في جبل شدا، كانت عيناه بالفعل عيني نمر حقيقي يغرسهن غرسا في لحم وجوهنا.

أومأ بيده فذهبنا نحوه في استسلام مبكر. كان قصير القامة وكان بشوشا، لكنه ضغط على أيدينا بقوة ثم رحب بنا. أحسست ان ترحيبه هذا يعادل نصف الطريق إلى الطائف، لكن هذا الإحساس لم يدم، فقد اكتشف بإلحاحه في السؤال أننا خارجون عن الأهل، ولا علم لهم بسفرنا. كان يسأل أحدنا وينظر في وجه الآخر حتى أدلينا له بكل شيء.

رغم أستار الرعب التي كانت تنسدل بيننا وبينه حتى وهو يضحك، فقد استجمعت مِزَقَ وجهي وقلت له: نحن رجال مثل آبائنا، ومثلما يسافرون سنسافر، سنلتحق بمعهد القضاء والنبي قد حث على طلب العلم ولو في الصين.

أغمض اليســـرى وحدق باليمنى في وجهي وكنت على يساره، ثم أغمض اليمنى وحدق باليسرى في وجه صديقي وكان على يمينه ثم قال: قضــاء؟ ثم أردف: الركوب من هنا ليس بهذه الســهولة يا أصــحاب الفضــيلة، هؤلاء الركاب قد ابرموا اتفاقات مسبقة مع أصحاب السيارات يا بني رقدان!

نهض من مجلسه وقال: "سأفقع" لكما علبة بسكوت من بســكوت القشــطة وعلبة ثانية من بســكوت الشــعيرة، ابتلعاها بالعافية والزما ســفح الحبناء. قالها ثم انصــرف. انصــرف نحو الداخل وأعيننا معلقة بذلك الممر المظلم الذي ابتلعه لدقيقة أو دقيقتين ليخرج ومعه البسكويت بالفعل.

تلبستْ صديقي حالة تهور لم تكن في الحسبان. صرخ كالمجنون في وجه الرجل الوقور: احتفظ بالبســـكويت لك، أما نحن فقد أتينا لنســـافر ولن تمنعنا. وكما توقعت فقد كان تهورا أشعل غضب العم صالح الذي تناول عصا غليظة جعلتنا نهرب وهو من ورائنا. أخذنا ندور حول ســـيارات الفُرْت الحمراء، نحن نجري وهو يجري خلفنا.

زمان الواقعة ١٩٦٥ ومكانها رهوة البر في بلاد غامد بمنطقة الباحة

السرداب

الضريح يبدو كسرداب موحش. في آخره لوح ممدد على الأرض، تعلوه قطعة جوخ. جذبت القطعة فأبانت عن هيكل عظمي. الجمجمة، والقفص، وجرائد الرجلين. حاولت جس الجمجمة بإصبعي فأوجست منها خيفه، أخرجت قلمي وشرعت في جس أجزاء منها، خيّل لي أن الجمجمة تتحرك. دققت النظر، وقبل أن اتحقق انطلقت نحوي مثل كرة طوحت بها قدم لاعب. تلافيتها بالقفز في مكاني، ثم استدرت بأحداق فزعة لأرى أين ذهبت ومن أين ستعود. ارتطمت بالحائط المقابل ثم عادت، أقفز ثانية وأتابعها تعبر تحت أقدامي. ارتطمت وارتدت نحوي بحقد وشراسه. عبرت وارتطمت بالحائط المقابل ثم ارتدت بنفس الشراسة، ولم يعد لي سوى اليقظة ومواصلة القفز.

الموعد

ارتميت على سريري، ألصقت به ظهري، صففت ساقيّ حتى التصقتا مثل ساقيّ مُسجّى، أسبلت ذراعيّ حتى أخذ جسدي وضع خشبة على ظهر الماء. أغمضت عينيّ، لكن هواجسي لم يغمض لها جفن. توترت أكثر، دفعت بنصفي الأسفل في اتجاه معاكس لنصفي الأعلى، ودفعت بنصفي الأعلى في اتجاه معاكس لنصفي الأسفل، وددت لو انشطر جسدي وذهب كل شطر في اتجاه.

فؤادي كتلة من فراغ وقلق. الرياح تعوي في الخارج، وبينما يتسعّر جوفي نارا كانت مكعبات البرد تتراكم على فراشي. لففت الغطاء حول جسمي حتى غدوت شَرْنَقَة لا ربيع لها. دحرجت نفسي من اليمين إلى اليسار، ثم من اليسار إلى اليمين، أخرجت لساعة الحائط وجهي، فوجدتها لم تبتعد كثيرا. بكيت، كان نشيجي مثل احتكاك قطعتين من حديد، ثم كففت.

النعاس الذي كنت أغالبه، وعقارب الساعة التي كانت تلاحقني، الأماني العراض التي كنت أقلبها بين أصابعي، والأحلام التي كانت تستخف بعقلي. الليالي التي كنت أعبث بجدائلها والأيام التي كانت تسترق السمع عليّ. الأمكنة التي كنت أتهجى حجارتها والأزمنة التي كانت تتفرج عليّ. كل هؤلاء

ذهبوا عني في ليلة الفجيعة هذه، انفضّ سامرهم وتركوني أحترق تحت ركام من جليد.

مضـــى الليل وعقارب الســاعة تزحف خلفه. أوقد النهار مصابيحه في غرفتي. جلست على سريري بعد ليلة لا أحلام لها، هممت بتنظيف فمي وبعد أن تناولت فرشـــاة أســـناني أرجعتها ثانية. نظرت للساعة فلم أتبين وجهها، قاطعني صوت سيارة ما، ثم وقع خطوات ما، ثم صـــوت مفتاح يداعب قفل غرفتي من الخارج.

المحتويات

م	المحتويات	الصفحة
١	الإهداء	٣
٢	خان الخياطين	٥
٣	البني آدم	١١
٤	سباق	١٥
٥	شارع البرسيم	٢٣
٦	ترهّل	٢٧
٧	المغزول	٣١
٨	رمضان كريم	٣٥
٩	هارمونيكا	٤١
١٠	هجرة نغم	٤٧
١١	ريح الحجون	٥٣
١٢	قهوة المداس	٥٩
١٣	السرداب	٦٥
١٤	الموعد	٦٩
١٥	المحتويات	٧٣

رقم الإيداع: ١٤٤٦/١١٥٨٨

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٥-٤٦٤٥-٩